

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تفسير

### السلطان محمد الثاني الفاتح

من أكبر الشخصيات التي تركت أثرا باقيا في حياة العالم لانزال نلسه إلى الوقت الحاضر شخصية السلطان محمد الثاني . وهذه الشخصية عظيمة لأنها حوات مجرى التاريخ الاسلامى والعالمى .

وإذا ذكر أعلام الإسلام في السياسة والحرب فمحمد الثاني العثماني بلا ريب في مقدمتهم ومن أعظمهم فهو الذي بنى ملكا الأتراك الثابت الأركان وهو الذي ثبت قدم الإسلام في أوروبا بالقضاء على العقبات التي تقف في طريقه . لقد وضع السلطان محمد الفاتح نهاية للدولة التي وقفت في سبيل الإسلام في أقوى أيام جبروته وعظمته ، ومنعته من أن يسيطر سيطرة تامة على الشرق الأدنى ، وعاقبت تقدمه وانتشاره في شرق أوروبا وإذا كانت قبائل الفرنجة من الجرمان قد صدت أمام غارات المسلمين في غرب أوروبا ، فلقد وقفت الدولة الرومانية الشرقية أو البيزنطية أمام قوات الإسلام مدة تزيد على قرن سبعة . قابلت هذه الدولة نهايتها أمام قوات السلطان محمد الثاني حين استولى على عاصمتها وأعظم مدنها بل وأعظم مدن العالم المسيحي في شرق أوروبا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي

ويعد عصر محمد الثاني من أقوى عصور الأتراك العثمانيين ، فنيته تركزت النظم العثمانية وثبتت دعائمها ، وفيه بدأ تقنين القوانين الذي

سيدبلغ شاوه في عهد السلطان سليمان القانوني . كان عهد محمد الفاتح عهد  
فتح وحرب وتنظيم كما كان عهد أدب وفن وثقافة وعلم ، فالسلطان الفاتح  
كان مجيدا لعدة لغات غير لغته التركية مجيدا لقول الشعر نغما بالموسيقى ،  
ونبع في عهده في الأدب عدد لا يستهان به ، فلقد كان يقول الشعر عدد  
من كبار رجال دولته كما نبغ في العلوم الشرعية واللغوية عدد كبير  
من العلماء الأماثل

واقدم حاول المؤلف في هذه الكتاب أن يصف حياة هذه الشخصية  
العظيمة وأن يلم إمامه موجزة بالهجر وحوادثه .

ويقدر الكتاب كل التقدير فضل أستاذه المؤرخ الكبير حضرة  
صاحب العزة محمد شفيق غربال بك ، فهو الذي وضع أساس هذه  
الدراسات في الجامعة ، وهو مدين بالشكر الجهم للمساعدة الحقيقية القيمة  
التي تفضل بتقديمها الأستاذ ابراهيم صبري مدرس اللغة التركية بجامعة  
فاروق الأول ، فلقد زود الكاتب بكثير من المعلومات الطيبة وترجم له  
النصوص التركية الشعرية والنثرية . ولا ينسى الكاتب كرم الأستاذ  
ساحب الفضيلة الشيخ ابراهيم حلمي القادري بالأسكندرية لتفضله وضع  
مخطوطاته القيمة ومراجعه الثمينة في التاريخ العثماني تحت تصرفه كما يشكر  
زميابه الأستاذين عبد المحسن الحسيني وجمال الدين الشيبان للمساعدة التي  
تفضلت بتقديمها له

الأسكندرية في سنة ١٩٤٨

## مقدمة

تضعفت قوى الإسلام في الشرقين الأدنى والأوسط منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، وأصبح الخليفة العباسى فى بغداد ، سليل المنصور وهرون الرشيد لا حول له ولا طول ، وتفككت الدولة الإسلامية وانحلت أمورها وتوالت عليها الكوارث من كل جانب . ولكن بقى اسم العباسيين فى بغداد رمزاً لمجد قديم وعز لا يبارى ومملك وارف الظلال إلى أن زال ذلك الرمز واحى ذلك العز نهائياً من على ضفاف دجلة والفرات حين قدم التتار إلى بغداد مدمرين مخربين ، وجعلوا من دار السلام ومدينة المنصور وحاضرة العباسيين خراباً بلقماً فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

زالت أعظم دولة إسلامية تنتسب إلى أصل عربى صميم ، ودكت معالم حضارة ازدهرت فأفادت العالم أجمع ، وضاع مجد لم تعرف له العراق مثيلاً إلا فى عهد الأكاسرة الساسانيين .

\*\*\*

وفى الوقت الذى كانت فيه قوى الإسلام تنحل من الناحيتين السياسية والحربية وتوشك على الانهيار فى الشرقين الأدنى والأوسط

كانت قوى الإسلام في الغرب في الأندلس تتلاشى رويداً رويداً أمام قوات المسيحية ، فكان الإسلام ، وكانت دار الإسلام مهددين بخطرين عظيمين لا يقيان من ناحيتين شرقية وغربية ، من ناحية التتار ومن ناحية المسيحية ، ولو اتفق الاثنان ووحدا قواتهما لقضى على الإسلام .

ولكن لحسن حظ الإسلام والعالم أن خصميه العتيدين في ذلك الوقت لم يتفقا ، وإن كانا قد حاولا الاتفاق ، ولم يحظ واحد منهما بنجاح حقيقى . دائم ، وإن كان قد ظهر للبشر جميعاً في حين من الدهر أن قوة الإسلام ووحدته الدينية ستصبحان كأس الدابر ، لا سيما وأنه في ذلك الوقت الذى تحقق فيه العالم من ضعف الإسلام ، هاجمت أوروبا ديار الإسلام بقوتها وزهرة شبانها وأقوى محاربيها ونوابغ فرسانها وكبار صليبيها .

\*\*\*

كاد الإسلام يسقط أمام هذه القوات الثلاث التى هددته من كل جانب ، ولكن ظهرت فى الإسلام قوات فتية ذات حيوية فائقة . ستنقذه ، وتشيد مجده من جديد وترفع ذكره . هذه القوات الجديدة هى قوات الأتراك السلاجقة وقوة مصر الإسلامية الأيوبية والمملوكية ، وقوة المغرب الأقصى .

وكانت أقوى هذه القوت جميعاً وأبقاها قوة الأتراك .  
لقد أجلت قوة المنرب الأقصى زوال الإسلام من الأندلس  
( أسبانيا ) مدة من الزمن ، وأنقذت قوة الأتراك وقوة مصر الإسلام  
من الصليبيين ومن التتار ، وإلى هاتين القوتين يرجع الفضل في إحياء  
الإسلام .

وقضت قوة الأتراك العثمانيين على آخر دولة مسيحية في الشرق  
الأدنى ، وهى قوة الدولة البيزنطية على يد السلطان محمد الثانى باستيلائه  
على مدينة القسطنطينية ، ولأن كان الإسلام قد خسر عاصمة عظيمة  
بسقوط بغداد على يد التتار ، فلقد أقام السلطان محمد الفاتح عاصمة  
جديدة للإسلام فى أعظم مدن المسيحية

\*\*\*

جدد الأتراك قوى الإسلام وأكسبوها حيوية جديدة من حدود  
الصين ووسط الهند إلى الشواطىء الشرقية للبحر الأبيض المتوسط  
وبحر الأرخبيل ، لقد استطاع الأتراك فتح آسيا الصغرى لسلطان  
الإسلام السياسى والدينى ، وإن هجراتهم التى لم تكن تنقطع لمدة  
أربعة قرون من أواسط آسيا إلى غربها هى التى صبغت هذه الأجزاء  
صبغة تركية وأكسبت الإسلام عناصر قوية نشيطة .

عرفت آسيا الصغرى غزوات للعرب وفتوحات من عهد الخلفاء الراشدين إلى قرب أواخر العصر العباسي ، هذه الغزوات ما كانت تفتقر وكانت تتجدد كل عام تقريباً في كثير من الظروف . ولكن هذه الفتوحات كانت أشبه بمد وجزر من ناحية العرب ومن ناحية البيزنطيين ، فطوراً يتوغل العرب في آسيا الصغرى ، وطوراً يرتدون إلى حدود الجزيرة والعراق .

ولكن الأتراك السلاجقة وحدهم هم الذين استطاعوا تثبيت قدم الإسلام في آسيا الصغرى بعد أن ضربوا البيزنطيين ضربة حاسمة في موقعة مندرت في القرن الحادى عشر الميلادى .

ومن ذلك الوقت بدأ الإسلام يتغلغل حقيقة في آسيا الصغرى على يد هؤلاء الأتراك السلاجقة ومن تبعهم من القبائل التركية ، ولم تستطع كرات البيزنطيين المتكررة ولا هجمات الصليبيين العنيفة أن تزعزع الإسلام من قواعده في آسيا الصغرى بصفة دائمة ، بل بالعكس انتشر الإسلام ، ودخل عدد كبير من السكان في الدين الجديد أفواجا ، بحيث لم يأت القرن الثالث عشر إلا وقد عم الإسلام وأصبح القوة المتفوقة في آسيا الصغرى ، وعبر التجار والجنود المرتزقة من الأتراك إلى أوروبا ، وإلى القسطنطينية ذاتها حيث شاهدوا أعظم

مدينة على سواحل البحر الأبيض ، وأجل مدينة اختطتها يد الإي نسان  
تشرف على قارتين وبحرين ، وبهرهم غناها وفخامتها وموقعها الممتاز ،  
وودوا لو أصبحت المدينة الخالدة على ضفة البوسفور معقلا من معاقل  
الإسلام ، عاصمة لملكه وملاذاً لأهله .

\*\*\*

ولكن السلجوقيين ما كانوا مستطيعين القيام بمثل هذه المهمة ،  
وهي أعظم مهمة يستطيع الفاتحون بعد سقوط بغداد القيام بها  
فالاستيلاء عليها معناه أكبر انتصار تستطيعه دولة ، وسقوطها معناه  
القضاء على أمة وتحويل مجرى التاريخ العالمى وإحداث انقلاب بعيد  
الأثر فى الحضارة .

وهم لا يستطيعون القيام بمهمة عجز العرب عنها فى أقوى عهودهم  
وأعز أوقاتهم ، وإن كانت قد أتاحت للسلجوقيين فرصة لم تتح للعرب  
من قبل ، فالسلجوقيون كانوا مالكين لآسيا الصغرى مقيمين فيها  
قريبين من القسطنطينية ، ولكن قريتهم لم يفدهم شيئاً ، فانقسام دولتهم  
وتفرق كلمتهم وعلم توحيد جهودهم أضعف من نفوذهم وجعل من بينهم  
فى آخر الأمر دويلات وشيعاً وأحزاباً حلفاء للبيزنطيين أنفسهم  
تعمل فى كثير من الأحيان على منافسة زميلاتهما ، بل والقضاء عليها .

ولكنه بالرغم من ذلك عاش الفرع السلجوقي الذي حكم آسيا الصغرى مدة ثلاثة قرون ، استطاع فيها بشجاعته ومهارته السياسية الاستفادة من المنافسة التي قامت بشكل حاد بين البيزنطيين والصليبيين . لقد هزم الأتراك السلاجقة البيزنطيين والصليبيين مراراً ، وأقاموا في آسيا الصغرى إلى أن هبطتها قبيلة تركية فارة أمام قوات التتار . كانت هذه القبيلة فئة قليلة تفرعت منها في فترة قصيرة من الزمن الدولة العثمانية .

ومبدأ ظهور الأتراك العثمانيين محوط بالخرافة وتتجمع حوله الأساطير ويظهر فيه الغموض حتى كأنما هبطوا من السماء أو انشقت عنهم الأرض أو هوت بهم الريح من مكان سحيق .

\*\*\*

لقد نشأ السلطان محمد الثاني الفاتح في دولة نهضت بسرعة ، دولة قامت على أشلاء الدولة السلجوقية ، وتفوقت لاختلاف الإمارات السلجوقية وتنازعها فيما بينها ، دولة ساعدها موقعها الجغرافي وقربها من الحدود البيزنطية على القيام بالحرب المقدسة ، فهوى إليها الأتراك من كل جانب ، قامت الدولة في عهد عثمان وجعل الإسلام من أهلها ومن بقية الترك أمة موحدة ، بل إن الإسلام هو الذي جعل من الترك

والأغريق والمجريين والبلغار والالبانيين والصقالبة أمة واحدة ، وجعل من كل هذه العناصر المختلفة قوة أصبح اسم آل عثمان لها رزماً وعقيدة .  
أنشأ عثمان الشعب العثماني ، وجعل أرخان من ذلك الشعب دولة تقوم على أسس إدارية وحربية وطيدة الأركان ، وانتقل الجيش العثماني من نظام قبلي إلى نظام حربي ممتاز ، والفضل في ذلك يرجع إلى أرخان وأخيه ووزيره علاء الدين ، وفي عهد أرخان وضع العثمانيون أقدامهم في أوروبا ، وثبتوا مراكزهم فيها حين افتتحوا أدرنة فأصبحت عاصمتهم إلى أن تم لهم الاستيلاء على القسطنطينية .  
ولقد قام الأتراك العثمانيون بالفتح في آسيا الصغرى والبلقان معاً ، وكما أصبحوا أكبر قوة في آسيا الصغرى ، صاروا أعظم دولة في البلقان بعد أن تمكن السلطان مراد الأول من كسر قوة الصرب والبلغار في موقعتي ماريتزا وقوصوه في أواخر القرن الرابع عشر ، فوقع البلقان تحت أقدام العثمانيين ، ولم تعد توجد فيه غير عناصر منحلة ، هذا في الوقت الذي كانت تزداد فيه قوة الأتراك باستمرار الهجرة التركية من آسيا تدفعها حركات المغول . وبينما كانت الحالة مضطربة في دول البلقان المسيحية كانت توجد بين الأتراك روابط متينة : دين واحد ، ونظام واحد ، وغاية واحدة .

ولربما استطاع السلطان بايزيد الأول القضاء على الامبراطورية لو  
امتاز بالتبصر وحسن السياسة ولو لم يواته سوء الحظ بغزو التتار ، فلقد  
لقب بالصاعقه يالدرم ، لقد قضى بايزيد على بلغاريا نهائياً وفتح بلدانها  
الواحد بعد الآخر ، كما تمكن من القضاء على قوة الصرب وإخضاع  
أجزاء من ألبانيا . ثم أعطى أوروبا درساً قاسياً إذا أرادت تحدى قوة  
العثمانيين ، فلقد قضى على قوة التحالف الأوربي الصليبي في موقعة  
نيكو بوليس في أواخر القرن الرابع عشر

وربما كان بايزيد مستظيماً فتح المدينة الخالدة لولا ترده وضعف  
أسطوله وعدم استكمال استعدادته ومجىء خطر التتار الداهم . لقد أرسل  
تيمور رسالته الشهيرة إلى بايزيد وهو يحاصر القسطنطينية الأمر الذى  
دعاه إلى رفع الحصار عنها ، وانهزم العثمانيون أمام التتار في موقعة أنقرة  
لتفريط بايزيد وسوء سياسته ، واستقلت بعض الإمارات التركية مثل  
قرمان وأيدين وكرميان ، وبدأت الدولة البيزنطية تنهض من محنتها .  
ولكن حسن الحظ واتى العثمانيين ، فلقد مل تيمورلنك الفتوح  
في آسيا الصغرى ، ورجع إلى سمرقند ، وفكر في فتح الصين ومات ،  
ولم يأسف عليه إلا سلام ، ولحسن حظ العثمانيين أيضاً بالرغم من الحرب  
الأهلية التى قامت بين أبناء بايزيد استطاع أحدهم أخيراً وهو السلطان

عهد الأول أن يوحد قوى العثمانيين ، وأن يتبع سياسة السلام لتثبيت دعائم الدولة من جديد . ومن حسن حظ العثمانيين أن زاد عدد الأتراك الهاربين أمام جيحافل المغول فامتلأت بهم آسيا الصغرى وأملاك الدولة العثمانية في أوروبا ، وانضم إليهم عدد كبير من أبناء المسيحيين البلقانيين ، فازدادت قوة الدولة من الناحية الحربية بهذه العناصر الجديدة .

وفي عهد السلطان مراد الثاني وهو أب الفاتح سيطر العثمانيون على آسيا الصغرى والبلقان ، وانتصروا على البنادقة ، واكتسحوا شبه جزيرة اليونان ، وهزموا المجرين والألبانيين ، وأصبح للعثمانيين التفوق في البلقان ، وذهب نهائياً الخطر الأوربي بعد موقعتي ورنه وقوصوه فأصبح الأتراك في مأمن من ناحية الدانوب ، وألزم الامبراطور البيزنطي بدفع الجزية . ولم يبق من ممتلكات الدولة البيزنطية إلا القسطنطينية وضواحيها . فكان الاستيلاء على هذه المدينة مهمة أعظم سلاطين هذه الدولة ، وهو السلطان محمد الثاني الذي سيلقب بالفاتح لفتح هذه المدينة ، وبالقانوني لتنظيمه القوانين العثمانية